

## الصليبيون في الشرق (\*)

ميخائيل زابوروف

مراجعة د. محمد مخزوم (\*\*)

الوسطى منذ العام 1956 . يعتمد مؤلف زابوروف «الصليبيون في الشرق» وموضوعية تامة على الموازنة بين مدونات الصليبيين على اختلاف أجناسهم ثم على ما كتبه حنة كوفينة ابنة الامبراطور البيزنطي من وجهة نظر بيزنطية خالصة، بالإضافة إلى ما دونه بعض المؤرخين المسلمين المعاصرين لأحداث الحركة الصليبية. يعرض زابوروف الأحداث التاريخية التي صاحبت هذه الحركة بروح الناقد الماركسي المتشدد فهو يشير إلى أن تعبير «الحرب الصليبية» ومفهوم الصليبيين جاء تلبية لنداءات وأفعال المتهوسين المتعصبين، وكان ماركس وإنجلز قد استعملوا هذا التعبير بمعنى مجازي سلبي كالإشارة إلى الحملة الأمريكية ضد العبيد وإلى موقف البورجوازية الفرنسية من كومونة باريس، في حين أن البورجوازية الأوروبية والأمريكية ما زالت، حسب تعبير زابوروف، تعتبر الحرب الصليبية «مثالاً

على الرغم من أن رواد النهضة الأوروبية قد نزعوا عن الصليبية مجدها إذ لم يجدوا فيها سوى مسخاً للقرون الوسطى، واسمين أفعال الصليبيين بالعار ومنسحقين بوحشتهم معتبرين حروبهم نتيجة لتعكر الذهن بنشوة الدين، فإنه يظل علينا بين الحين والآخر بعض المؤرخين الغربيين محاولين اظهار «مدى قوة وعظمة الغرب ووحدته» في الصراع ضد الشرق الإسلامي.

وبعد أن وصلتنا كتب عديدة لمستشرقين سوفيات كتبوا في تاريخ بلاد الشام الحديث، أمثال كراتشكوفسكي وبازيلي وكريمسكي وسميليانسكايا وغيرهم يظل علينا الآن كتاب جديد من نوع آخر لمؤلفه ميخائيل زابوروف تدور موضوعاته حول الحركة الصليبية في الشرق. وكان زابوروف قبل أن يضع كتابه هذا عام 1980 قد دأب على وضع عدة بحوث في هذا الموضوع وفي مسائل تاريخ الدين في القرون

(\*) دار التقدم موسكو. 1986 .

(\*\*) الجامعة اللبنانية - بيروت .

على الخدمة المنزهة المفعمة بالإلهام الصادق».

## 1- في أسباب الحرب الصليبية:

لم يختلف زابوروف كثيراً عن غيره في تقديم الأسباب الاقتصادية على غيرها من العوامل، إلا أنه في حين فسر معظم المؤرخين الأوروبيين الدافع الاقتصادي كمحصلة للعوامل الطبيعية التي حدثت في أوروبا قبل الحرب الصليبية من قحط وهزات أرضية وأوبئة، يذكر أرنست باركر المؤرخ الانكليزي أنه: «ينبغي التسليم بأن ثمة من الأغراض الدنيوية ما اجتذب إلى الحروب الصليبية جموع الدماء. فما حدث في مواطنهم من المجاعات والأوبئة، دفع الناس إلى الهجرة إلى الشرق، ابتغاء الخروج من الضيق، وأملًا في الخلاص منه<sup>(1)</sup>». كذلك يؤكد زابوروف على أن الواقع الاجتماعي الناتج عن النير الإقطاعي الزمني والكنسي كانت له المكانة الأولى على غيره من الأسباب.

كيف يحدد إذن زابوروف الأسباب التي أدت إلى الحروب الصليبية؟

- على أثر النشاط التجاري البارز في أوائل القرن الحادي عشر أخذ الاقتصاد العيني بالتراجع، فأدخل الأسياد فريضة المدفوعات النقدية عوضاً عن الجزيات العينية مما زاد في فقر الفلاحين أو الأتباع الذين عمدوا إلى الهروب من نير الإقطاع حتى أصبحت هذه الحالة ظاهرة جماهيرية مألوفة في القرن الحادي عشر.

- لقد صاحب المجاعة التي حصلت في أوروبا أثر القحط وممرض الطاعون والأوبئة والهزات الأرضية والحروب الداخلية الاقبال على النسك والزهة خاصة في السنوات العجاف للخلاص من عقاب السماء والرب الغاضب.

- أسهمت الحروب المتواصلة بين الإقطاعيين الكبار من أجل الاستيلاء على الأرض بواسطة طبقة

الفرسان الأتباع الملتزمين بأداء الخدمة العسكرية في دخول هذه الطبقة طريقاً مسدوداً. فالأرض الخالية التي تقدم كمكافأة لقاء الخدمة لم تعد موجودة. كما أن نظام وراثة الاقطاعات (نظام البكورة) الذي يمحصر حق وراثة ممتلكات السيد بالابن البكر فقط قد أوجد طبقة من الفرسان محرومة من الأرض امتنعت أعمال السلب والسرقة واللصوصية حتى أن ممتلكات الكنائس والأديرة كانت بالنسبة لها الطعم الأكثر اغراء.

«إن أعمال العنف التي كان يقترفها الفرسان المنحطون كانت تستكمل خراب الفلاحين ولكنها كانت تتسبب بالضرر لعقارات الكنائس والأديرة التي لم تكن تتوفر لها الحماية المسلحة الكافية. وفي قلب الطبقة السائدة نشب الصراع، الأمر الذي بث القلق في أوساط الفئات العليا الحاكمة من المجتمع الإقطاعي في الغرب، وأجبرها على البحث عن مخرج ما من المصاعب الناشئة. بوار المواسم الزراعية، المجاعات، الأوبئة، فرار الفلاحين بالجملة، وأحياناً انتفاضاتهم «الفتن» (حسب تعبير مدوني الأخبار)، ناهيك عن لصوصية الفرسان «المعدمين» وتعسفهم، والنزاعات بين الإقطاعيين والتكتلات الإقطاعية...»<sup>(2)</sup>.

هذه هي الحوافز الأساسية التي انبثقت عن النظام الإقطاعي والتي أدت كما يراها زابوروف إلى أن تكون أحد الحوافز الأساسية لقيام الحروب الصليبية.

- أما الكنيسة فبصفتها أكبر ملاك عقاري إقطاعي، فقد كانت حصناً روحياً لطبقة الإقطاعيين مما حدد بالتالي وظيفتها الاجتماعية التي كانت تتلخص بالوعظ بالتعاليم المسيحية التي تقول إن النظم الأرضية هي من صنع الرب وأنه لا يصح ولا يمكن بالتالي تغييرها، مطالبة الكادحين بالخضوع التام لأسيادهم،

وهكذا يعتبر مؤرخنا أن أسفار التقى والورع إلى القدس تعتبر عاملاً جوهرياً من عوامل قيام الحروب الصليبية. لأن خلاص الروح بقدر ما كان مسألة مهمة بالنسبة للسذج من طبقة الأقباط كان أيضاً مسألة هم الفرسان الجهلة الذين كانوا يتقيدون بكل دقة بالطقوس الكنسية حتى وإن تجاهلوا قواعد الأخلاق المسيحية.

«إن حركة الحج قد هيأت الحروب الصليبية فكراً وعملياً، فقد أسهمت في تعاظم الأمزجة والميول الدينية الزهدية، وعرفت الأوروبيين على الطرق إلى الشرق، وعلى الوضع في البلدان الشرقية، والرئيسي أنها هيئت تعطش الإقطاعيين الذين لا يرتوون إلى امتلاك الأراضي فيما وراء البحار»<sup>(5)</sup>.

- بالإضافة إلى هذه الأسباب يضيف زابوروف سبباً آخر لا يقل أهمية عن غيره، فالحروب التي نشبت في القرن الحادي عشر في الغرب والتي جرت تحت راية الدين قد هيأت التربة للفكر الغربي الإقطاعي بامكانية التوسع في الشرق. فحركة الاسترداد (الريكونكستو) التي قامت في اسبانيا لاستعادة الأراضي التي سبق أن احتلها العرب قد لاقت نجاحاً عند الدعاة لها. ففي سنة 1072 استولى النورمانيون على صقلية وفي سنة 1085 انتزعت طليطلة من أيدي المسلمين وفي سنة 1087 تشكلت وحدات إقطاعية للثأر من انتصار العرب سنة 1086، وكان على رأسها ريمون دي سانجيل كونت تولوز القائد المقبل للفصائل من بروفانس في الحملة الصليبية.

وليطلع البابا اسكندر الثاني هذه الحروب بالطابع الديني فقد أعلن أن الكنيسة تغفر خطايا كل من يذهب إلى اسبانيا للقتال من أجل قضية الصليب. وفي سنة 1073 سمح البابا غريغوار السابع بامتلاك

وواعدة الودعاء بالنعيم في الجنة بعد الموت، ومهددة الثمردين والعصاة بالعذابات الأبدية في الجحيم. وهكذا نصبت الكنيسة نفسها المدافع عن مصالح الإقطاعيين سواء في ميدان الأيديولوجيا أو في ميدان السياسة. فالتنظيم الكنسي الإقطاعي في تراتبيته كان مشابهاً لمثيله السياسي بل يفوقه قوة ومتانة، إذ كانت ديمومته تثير حسد النبلاء وخوف الملوك. فبينما كانت الأرض المقطعة تنتقل من تابع إلى آخر بحكم الوفاة أو تحلل النبيل من العقد كانت ملكية الكنيسة لها مستمرة حتى شُبهت «باليد التي لا تموت». وهكذا بررت الكنيسة الإقطاع وامتلكت حوالي ثلث الأرض في بعض المناطق بمن عليها من أقباط. وكانت ضريبة العشور من أثقل الضرائب التي تمتد إلى جميع الفئات الشعبية. كما أصبحت الهبات التي كانت العامة تقدمها إلى رجال الدين باختيارهم، ملزمة. وكان للكنيسة إقطاعياتها ومحاكمها الخاصة التي يخضع لها أتباعها. كما كانت الحروب الإقطاعية المتعارضة مع جوهر الدين تنقل كاهل الكنيسة لما تتطلبه حياة الجندي واقتناء الفرسان من مصروفات ضخمة فقد أوجدت السلام الإلهي ثم الهدنة الربانية التي حرمت الحرب أيام الأعياد والصوم<sup>(3)</sup>.

في هذا الجو المضطرب الذي صوره لنا زابوروف بدقة انتشرت فكرة القيام بالحج وزيارة الأماكن المقدسة تكفيراً عن الذنوب وتأميناً للخلاص الساوي:

«إن الأسفار إلى القطر الذي اجترح فيه فيما مضى يسوع المسيح العجائب، والذي يحفظ الكثير من دخائر حياته وموته، إنما كانت الكنيسة تعتبرها مأثرة كبيرة أمام الله. وكان يُنسب إلى الصلاة في الأرض المقدسة مفعول خاص. وكل هذا كان يضيف على القدس جاذبية كبيرة»<sup>(4)</sup>.

الأراضي التي ينزعتها المسيحيون من «الكفار» غافراً في نفس الوقت خطايا الذين يقتلون في المعارك من أجل الدين والإيمان.

«كانت حروب الفرسان الفرنسيين في اسبانيا بمثابة حروب صليبية قبل الحروب الصليبية من حيث الشعارات، ومن حيث الألبسة والرايات، ومن حيث المضمون. وقد نعت ماركس في مؤلفه «نبذات تاريخية متسلسلة» حملة ملك كاستيلا الفونس السادس على العرب في طليطلة بأنها كانت مقدمة للحرب الصليبية الأولى»<sup>(6)</sup>.

جاء موقف الكنيسة هذا من حروب «الاسترداد» الإسبانية نابعاً من قوتها بعد حركة الإصلاح الكلوني في عهد البابا غريغوار السابع (1073 - 1085) الذي أعلنها في رسالته الشهيرة: «انه يحق للكرسي الرسولي أن يتصرف بالتيجان ويعين ويعزل الأساقفة والدوقات والملوك والأباطرة. وكل سلطة، أيا كانت، لن تكون فعلية وحقيقية إلا بقدر ما تنجم عن رئيس الكنيسة، مثل العلي الأعلى في الأرض».

وإن كانت هذه السياسة قد قوبلت بالرفض من جانب الكثير من الملوك، وبخاصة من جانب الأباطرة الألمان، إلا أن جهود روما حتى العسكرية منها قد تكللت بالنجاح ضد السلطة الزمنية عهد أخلاف غريغوار السابع.

- لقد كان القضاء على استقلالية الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية التي انفصلت نهائياً عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في سنة 1054 جزءاً لا يتجزأ من برنامج البابوية التيوقراطي. فالتغلغل السلجوقي في أراضي بيزنطة عهد ألب أرسلان وهزيمة البيزنطيين الماحقة في ملاذ كرت عام 1071 أفقدت بيزنطة ممتلكاتها الغنية في آسيا الصغرى وهددت شواطئها بحر مرمرة بالسقوط. ومع أن السلاجقة سيطروا على بلاد الشام تقريباً في عهد ملكشاه (1072 - 1092) إلا

أنهم لم يؤسسوا بعد وفاته دولة ممرضة، فانفجرت الخلافات والمخاصبات بين الحكام الكبار والصغار وصارت آسيا مسرحاً لحروب عديدة نشطت خلالها الأخبار عن تدنيس المقدسات ومضايقة الحجاج. وزابوروف يعني هذا الزعم الذي اختلقه، بعد أن تعاطمت الحركة الصليبية، مدونو الأخبار بقصد تبريرها بمختلف الأساطير، وقد تلقف المؤرخون الأوروبيون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ولا سيما الكاثوليك منهم هذه الأساطير وزينوها بشتى التفاصيل: «كان السلجوقيون يشكلون خطراً على المسيحية ولذا كان صد هذا الخطر يتطلب تدخل الكاثوليك المسلح. وأخذ بابا روما على نفسه قيادة الكاثوليك، ومن هنا نشأت الحروب الصليبية». بهذه البساطة وصف مؤلفو «تواريخ الحروب الصليبية» الوضع قبيل قيامها. يعلق زابوروف على هذا التحليل المبسط بقوله:

«وهذا الضرب من التطورات عن أقرب أسباب الحروب الصليبية لا يزال واسع الانتشار الآن في الغرب، واليوم يصدر هناك عدد لا يستهان به من الكتب التي تبدأ أبداً ودائماً بوصف العقبات التي أقامها السلجوقيون، كما يُزعم، في طريق الحجاج الأتقياء، وبوصف المصاعب التي واجهها الحجاج في الأرض المقدسة. ان هذا التفسير للأحداث لا يتطابق البتة مع الوقائع التي قررها المؤرخون المسيحيون القروسطيون»<sup>(7)</sup>.

وهكذا لم يكن تضخيم الإشاعات من قبل البابوية عن خطر السلاجقة على الحجاج وأماكن الحج إلا لتسهم في تدفق قوات مسلحة جديدة من الغرب، إبان الهزائم التي كان يمتد بها الصليبيون في الشرق. يذكر المؤرخ تومسون ان بطريك القدس قد كتب في إحدى رسائله: «ان المسلمين قوم عادلون ونحن لا

نلقى منهم أي أذى أو تعنت وإن ما اعترى المسيحيين في الشام وآسيا الصغرى من متاعب ذلك العصر إنما مرده للصراع بين السلاجقة والبيزنطيين لأنه لا يوجد أي دليل على قيام السلاجقة باضطهاد المسيحيين الخاضعين لهم».

يختم زابوروف حديثه عن أسباب الحروب الصليبية بقوله:

«أخذ البابا أوربان الثاني على نفسه زمام المبادرة إلى تنظيم حملة جماهيرية على الشرق كانت فكرتها قد انتشرت في الأوساط الاقطاعية في أوروبا الغربية. وفي سنة 1095 طرح برنامجاً واسعاً لتوحيد الفرسان لأجل فتح البلدان الشرقية تحت شعار مساعدة الروم الأخوة في الدين وتحرير قبر السيد المسيح. هكذا فضجت فكرة الحرب الصليبية. وقد وقعت في تربة مهياة غاماً»<sup>(8)</sup>.

## 2 - الأيديولوجية الصليبية:

لقد تكونت أيديولوجية الحروب الصليبية في الخطاب الاحتفالي الذي ألقاه البابا أوربان الثاني عام 1095 في احتفال شعبي واسع حضره الأسباط والفرسان والمتضررون جوعاً والمعذبون من العبودية. دعا البابا في خطابه جميع الكاثوليك إلى حمل السلاح لأجل الرب ضد «الكفار» الذين دمروا الكنائس واجتاحوا مملكة الرب (بيزنطة) ووعد المقاتلين بغفران الخطايا والثواب الأبدي في الجنة. إلا أنه أضاف «أن الأرض هنا في الغرب لا تفيض بالثروات أما هناك في الشرق فانها تسيل عسلاً ولبناً. والقدس إنما هي محور الكون، منطقة فائقة الخصب بالمقارنة مع المناطق الأخرى. هذه الأيديولوجية بنظر زابوروف:

«كانت منذ بادىء بدء عاملاً جباراً جداً أسبل رداءً دينياً على تطلعات الفرسان

الفعلية، الأرضية تماماً. وأحاطت دوافع الفتح والاعتصاب بهالة القداسة في عيون الفرسان أنفسهم، وصورت الحرب الصليبية بصورة مشروع لخلاص النفس وللفتح والاعتصاب في آن واحد. وكأنما عرضت على الفرسان تبريراً مقنعاً لأعمالهم يشكل مزيجاً، أصيلاً، فريداً من مكافأة دينية ومكافأة دنيوية. المكافأة الأولى يمنحها البابا والمكافأة الثانية يصادق عليها»<sup>(9)</sup>.

## 3 - المجتمع الإسلامي عشية الحرب الصليبية:

كان المجتمع الإسلامي تحديداً في بلاد الشام مزيجاً متافراً من الكيانات السياسية والعرقية والمذهبية. فقد كان الصراع المذهبي على أشده بين دعاة الخلافة العباسية في بغداد من قبل السلاجقة ودعاة الخلافة الفاطمية. بالإضافة إلى أن الشيعة أنفسهم كانوا متعددي العقائد من الإسماعيلية وفرقها المختلفة إلى القرامطة فالاثني عشرية. كما أن تنافر الأخوة بوفاء ملوكهم جعل الصليبيين الذين يدينون بانتصاراتهم الأولية إلى تلاحمهم ووحدتهم يواجهون قوات عسكرية متفرقة لا يجمع بينها هدف معين أو استراتيجية عسكرية محددة. وهكذا لم يلق الفاتحون الموقف الموحد اللازم فاستطاعوا أن يوطدوا سيطرتهم في الأراضي التي غنموها لمدة طويلة.

ومع ذلك يمكن الإشارة إلى أن المسلمين قاوموا الغزاة مقاومة عنيفة خاصة في انطاكية رغم قلة عدد الحامية فيها وعدم نجدة أمراء السلاجقة لها طيلة مدة الحصار التي دامت نحو سبعة أشهر. أما أثناء حصار بيت المقدس فقد تكبد الصليبيون خسارة فادحة مما لقوه من مقاومة بالغة الشجاعة والجرأة. يذكر زابوروف عن ذلك:

«إن مدوّني الأخبار اللاتين، إذ يغدقون المدائح على الصليبيين الشجعان، لا

يستطيعون أن يخفوا الحقيقة عن صلابة حاة المدينة العرب. كتب فولهير من شارتر: أخذ المسلمون يعملون ضدهم ويسكبون الزيت والدهن الغالي ويرمون المشاعل المتأججة على البرج المذكور وعلى الفرسان الموجودين فيه. وهكذا كان الموت السريع وقبل الأوان يحصد الكثيرين من المقاتلين من هذا الجانب وذلك<sup>(10)</sup>.

#### 4 - النفسية الجماعية عند الصليبيين:

بعد أن افتتح الصليبيون انطاكية ما لبث السلاجقة أن حاصروهم بها. وتحت ضغط الحصار الشديد فقد عامة الصليبيين الأمل بالنجاة. وما عزز ذلك هروب بعض الفرسان من المدينة المحاصرة أمام الخلاف الناشب على امتلاك المدينة بين زعماء الصليبيين: ريمون دي سانجيل المدعي بانطاكية وبوهمند الذي نصب عليها لفعاليته التي أظهرها عند فتح المدينة. استحوذ اليأس على المحاصرين وطفقت هلوسات الجوع تعكر صفو عقول الكثيرين منهم. فوجد ريمون دي سانجيل أن تاجع العواطف الدينية عند الصليبيين يمكن أن يخلق عندهم ضعفاً ملائماً للقبول بالمعجزة الربانية ليكونوا أشد احتمالاً وصبراً على الحرب. فأوعز ريمون إلى أحد رجاله الفقراء واسمه بيار برتلمي أن يعلن لرفاق السلاح إنه رأى في المنام وليس مرة واحدة فقط الرسول أندراوس يسر إليه «أن في كنيسة القديس بطرس بمدينة انطاكية توجد حربة مطمورة هي الحربة التي طعن بها، كما جاء في الانجيل، المحارب الروماني فخذ يسوع المسيح المصلوب على الصليب، فاذا وجد الصليبيون هذه الحربة المقدسة المغسمة بدم ابن الآله، فقد خلصوا!». وهكذا انتشرت هذه الرؤيا انتشاراً واسعاً. وفعلاً

بعثوا إلى الكنيسة ليجدوا الحربة تحت أرضها وكانت المعجزة. إذ استغل فرسان الصليبيين هذه الحادثة واندفعوا إلى القتال بمجازفة وتهور كبيرين حتى تحقق لهم النصر. وتحققت نبوءة برتلمي! ومعجزة القديس اندراوس!! كيف يفسر لنا زابوروف وجهة نظر الكنيسة في هذه الحادثة؟.

1 - ان الدور الرئيسي لنجاح الصليبيين يحمده زابوروف عند ابن الأثير لا في بسالة الصليبيين الحربية بقدر ما وجده في الخلافات التي نشبت بين الأمراء السلجوقيين عشية المعركة. إذ ترك أحد زعماء السلاجقة المعركة بعد أن وصلته أخبار المصريين بمهاجمة فلسطين من الجنوب. كما ترك بعض القادة المعركة لاستيائهم من غطرسة القائد العام للسلاجقة.

2 - إن قصة المعجزة تكشف فيها بعد لجموع الصليبيين عندما نصح الرب في إحدى رؤيا برتلمي بوجوب اعطاء بوهمند (وليس سانجيل) انطاكية. مما يدل على أن بوهمند قد استطاع أن يستغل «موهبة الرؤيا، عند هذا الفلاح لمصلحته».

3 - إن الكنيسة البابوية المثلة بـ أديمار المرافق لقوات الصليبيين قد صمتت أولاً عن هذه الحادثة حتى تحقق النصر في المعركة. ولكن أديمار ما لبث أن رفض تصديق المعجزة. فصرح أن الحربة التي وجدوها في الكنيسة مصطنعة مقلدة. وأحيل التمس الحظ برتلمي «الذي نقل إرادة الرب للصليبيين» إلى محكمة الرب ليموت في امتحان النار.

إن عدم اعتراف رجال الدين بصحة معجزة الحربة المقدسة برأي زابوروف كان بسيطاً للغاية إذ أنه حتى في مرحلة ازدهار الصوفية الدينية كان رجال الكنيسة يبدون على السدوم قدراً معيناً من التعنت حيال العجائب. فقد تخوفوا من أن تؤدي الاختلافات والأحاييل الدينية البينة الكذب والسهولة على الدحض

والتشهير إلى تقويض مكانة الكنيسة في صفوف الشعب وليس إلى توطيدها.

«إن ازدواجية الوعي الديني القروسطي المشرب بالمبادئ العقلانية إلى هذا الحد أو ذاك، تظهر بما يكفي من البروز والسطوع في الواقعة الموصوفة. ولهذا الازدواجية تفسيرها. فهي تنبع من خصائص فلسفة العناية الإلهية التي تعرضت في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر للتفسير السكولاستي (الكلامي). ثم إن الإرتيابية حيال مسرحيات المعجزات، المسرحيات المصطنعة أو المتفننة بنحو غير كاف، قد نشأت في آخر المطاف وقبل كل شيء عن ضرورة تأمين مصالح الكتلكة بدأب وتتابع. ولم يكن من شأن دعم المعجزات الكاذبة، كما يرى رجال الدين، سوى أن يضر بالإيمان والدين»<sup>(11)</sup>.

## 5 - انتقال الصراع بين السلطتين من الغرب إلى الشرق:

يُجد زابوروف أن «ادعاءات الكرسي الرسولي بالسلطة المدنية الدنيوية على بعد آلاف الأميال عن روما كانت تبدو في عيون الفرسان ورؤسائهم غير مقنعة».

ومع أن غودفروا الذي انتخب الحاكم الفعلي لمدينة القدس قد وافق على إعطاء البطريرك ممثل البابا ريع القدس ويافا معتبراً نفسه تابعاً له. إلا أن بودوان عندما أصبح ملكاً (1100 - 1118) لمملكة القدس اللاتينية رفض رفضاً قاطعاً ادعاءات رجال الدين السياسية، تماماً كما كان يحصل في الغرب بين السلطة الزمنية الممثلة بالباطرة والملوك والسلطة الدينية الممثلة بالبابوية. حتى أن بودوان لقب نفسه رسمياً في وثائقه: «أنا بودوان، الذي نال مملكة القدس بمشيئة

الله». مما يعتبر تحدياً صارخاً لمنصب البابوية نفسه. لم تقف البابوية مكتوفة الأيدي أمام تعديلات السلطة الزمنية في المملكة اللاتينية فقد أنشأت لها في الشرق عدة منظمات عسكرية دينية كمنظمة الاسبيتاليين ومنظمة الهيكلين ومنحتهم الامتيازات والاعفاء من الخضوع للإدارة المحلية في مملكة القدس الزمنية وحصرت السلطة العليا عليهم بالكرسي الرسولي في روما فقط.

## 6 - الأخلاقية الصليبية:

يحاول زابوروف أن يبرهن كلما سنحت الفرصة له عند سرده للحدث التاريخي عن سطحية المشاعر الدينية عند الصليبيين لحساب المصلحة الشخصية. فيذكر أن الصليبيين عند فتحهم لإحدى المدن كان يتحكم بهم التعصب الأعمى والتحرق إلى الانتقام من «الكفار» الذين تسببوا لهم بمثل هذا القلق والاضطراب بصلابتهم ويسالتهم وكبدوهم مثل هذه الخسائر، «فينقضوا بوحشية وضراوة وهمجية على سكان المدينة المفتوحة وثوراتها». أما في المسجد الأقصى باعتراف مدون أخبار ايطالي ذبح الصليبيون لا يقل عن عشرة آلاف شخص.

أما عندما فرض صلاح الدين ثمناً لفدية المسيحيين بعد فتحه للقدس لم يستطع زهاء عشرين ألف فقير من جمع النقود اللازمة. ورفض الفرسان الرهبان الهيكلين والأوسباليون الذين يملكون الأموال بوفرة أن يقدموا هذه النقود لأجل افتداء الفقراء. إلا أن خطر الاستياء والغضب أجبر الفرسان الرهبان على دفع فدية عن سبعة آلاف فقير.

كما أن زابوروف يلاحظ ضعف وتذبذب الوازع الديني في الحملة الصليبية الثالثة التي حصلت بعد سقوط القدس. ومع أن الاقطاعيين الكبار شاركوا فيها إلا أن دول أوروبا كانت تطمح إلى تثبيت تجارتها

الإسلامية، على دولة مسيحية هي  
الامبراطورية البيزنطية، ودمروا عاصمتها كلياً  
وتماماً، واكتفوا بذلك كأنما لم ترد يوماً قضية  
تحرير الأرض المقدسة»<sup>(13)</sup>.

#### ما هي ملابسات الحملة الرابعة؟

بعد فشل الحملة الصليبية الثالثة في استرداد ما  
اقتطعه صلاح الدين إثر موقعة حطين، أخذ البابا  
إنوسنت الثالث (1198 - 1216) يدعو حملة صليبية  
رابعة. ومع أن أحداً من ملوك أوروبا لم يشترك في  
هذه الحملة إلا أنها تشكلت من نخبة فرسان فرنسا  
وانكلترا والمانيا وصقلية والأراضي المنخفضة. وكان  
المع الذين هيأوا لهذه الحملة شيخ البندقية دندلو  
الأعمى الذي فقد بصره في القسطنطينية. واعرضت  
هذه الحملة مشكلة المال المطلوب تقديمه لسفن  
البندقية التي ستحملهم إلى مصر التي شكلت العائق  
الدائم أمام الصليبيات على امتداد وجودها. إلا أن  
الحملة على مصر لم تكن ترضي البندقية وتجارها الذين  
كانوا يقيمون علاقات تجارية معها رغم تحذيرات  
البابوية المتكررة.

ولما كانت علاقة البندقية ببيزنطة سيئة بعد أن  
توقف الامبراطور عن تقديم الفدية المتوجبة عليه بعد  
الهزيمة التي مني بها أمام البندقية، ولما كانت  
الاعتبارات الدينية برأي زابوروف «بخسة الثمن بنظر  
التجار وأصحاب السفن في البندقية»، ولما كان على  
البابا القيام بهذه الحملة ليسترجع هيئته في الشرق،  
ولما لم يكن أمام الصليبيين المتجمعين في البندقية سوى  
الخضوع لآغراءات تجارها. فقد تم اقناع معظم  
الفرسان بغزو مدينة زاره المسيحية المنافسة للبندقية  
تجارياً لتمويل فرسان الصليب.

إن البابا إنوسنت الثالث المتشدد بقيام الحملة  
الصليبية يكون بعدم اتخاذ أية عقوبات جديّة حيال

في الشرق وإلى السيادة على منطقة المتوسط. أما  
الجهاهير فقد استقبلت دعوات البابا بقدر من  
التعاطف أقل بكثير من ذي قبل. وعندما فرض سنة  
1189 في انجلترا ثم في فرنسا أتاوة عامة قدرها عُشر  
جميع المداخيل لأجل تغطية حاجات الحملة وهو ما  
عرف بعشر صلاح الدين، استثار ذلك بين سواد  
الناس الاستياء والغضب. ووفق الناس يستقبلون  
جباة عشر صلاح الدين بالحجارة. لذا كان لا بد من  
إلغائها كلياً في فرنسا<sup>(12)</sup>.

أما الحملة الرابعة فقد شغلت مكاناً خاصاً في  
تاريخ الحروب الصليبية. إذ اعتبرها بعض المؤرخين  
ضرباً من مفارقة تاريخية. ذلك أن هذه الحملة التي  
استهدفت تحرير الأماكن المقدسة من السيادة  
الإسلامية قد انقلبت في آخر المطاف إلى هزيمة منيت  
بها بيزنطة وإلى تشكيل امبراطورية لاتينية مكانها هي  
دولة الصليبيين. ففي حين يضع البابا مسؤولية  
انحراف الحملة عن السبيل على تجار البندقية أو قادة  
الحملة أنفسهم فإن زابوروف يحلل هذه الحادثة على  
الشكل التالي:

«ولكن ليس ثمة تناقض، من حيث  
الجوهر، في مثل هذه المآل، بل بالعكس. فإن  
الحملة الصليبية الرابعة بالذات قد أظهرت  
بصورة خارقة الجلاء تلك من تطلعات  
الاقطاعيين والكنيسة الكاثوليكية، التي ليس  
دائماً تظهر على السطح، والتي شكلت منذ  
بادئ بدء النابض المحرك الرئيسي والمشارك  
للمشاريع التي تحققت تحت رمز الصليب. إلا  
أن الغلاف الديني - وقد كانت الكنيسة تغلف  
به على الدوام هروب الفرسان في الشرق،  
للموصية من حيث الأساس - قد تمزق كلياً  
في هذا المشروع. فعوضاً عن السعي إلى  
استرجاع القدس من «الكفار» استولى  
الصليبيون، الذين كانوا قد تحركوا ضد مصر



حول امتلاك أنطاكية مما أخرج الحملة الصليبية نحو نصف سنة. ويضيف أنه بقدر ما كان يمر الزمن بقدر ما كان يتجلى طابع الحملة الصليبية العدواني الاغتصابي مما دفع بأحد مدوني الأخبار إلى القول «كل مكان أعطانا إياه الرب كان يثير الجدل».

يعلق زابوروف على حالة الصراع المستديرة بين الصليبيين أنفسهم بقوله:

«إن تلاحم الغزاة والهابين كان في منتهى الضعف والهشاشة، وكان يخلي المكان بكل سهولة للتطاحن والتكالب حين كانت تتصادم المصالح الدينية والأنانية لزعماء عصابات الصليبيين بعضها ببعض».

«وفي سوريا، تبدى بكل جلاء تقلقل «وحدة الغرب» المزعومة في الحملة الصليبية. وهذا التقلقل لم ينعكس في النزاعات الدائمة بين الأسياد، بين هذه أو تلك من فصائل الفرسان وحسب، ففي صفوف المقاتلين، بدأت تنكشف، ثم سرعان ما تفجرت كلياً تناقضات من نوع آخر أيضاً - هي التناقضات بين الفلاحين الفقراء وبين الإقطاعيين»<sup>(14)</sup>.

وهكذا كانت وحدة الأهداف الدينية، وإن تكن وحدة سطحية، تربط البارونات فيما بينهم نوعاً ما، أما فيما بعد، فقد أخلت هذه الوحدة المكان لتناقضات بين مصالح الغزاة الفعلية التي أخذت تتفاقم يوماً بعد يوم.

أما عن الاعتبارات السياسية فإن أول ما يمكن أن نشير إليه هو أن الصليبيين عند زحفهم نحو الشرق وخلال إقامتهم فيه قد حاولوا إقامة علاقات سياسية مع المسلمين أسفرت أحداها عن حصار أنطاكية إلى إفقاد بعثة صليبية إلى القاهرة للتلطّاح في هذا الأمر. مما يدفع إلى القول أن الاعتبارات الدينية لم تمنع الصليبيين من محاولة الاستفادة من المنافع السياسية التي تعتبر غير جائزة بالنسبة لأخصام الإسلام. يعلق

قواته التي نهب زاره وكنائسها وأديرتها قد تغاضى عملياً عن خطة البندقية خاصة أن أية ادعاءات بعدم معرفته بالخطة غير ثابتة لكون مثليه وفرسانه قد شاركوا في هذا الغزو الذي تم الإعداد له لفترة طويلة.

إن أعمال القتل والنهب التي حدثت عند احتلال القسطنطينية دفعت بأحد كتاب ذلك الزمن إلى القول أنه «بتتبع الحديث عن هذه المآثم يرتعش العقل ويحمر وجه البشرية خجلاً».

يستخلص زابوروف من هذه الأحداث أن الصليبية تحولت بعد الربع الأول للقرن الثالث عشر إلى ورقة سياسية في يد البابوية أي في النضال ضد الامبراطورية الألمانية عهد فريدريك الثاني الذي لم يكن يرى من جهته في الحملة التي قام بها إلى الشرق سوى وسيلة لبناء دولته العالمية على حساب سلطة البابا.

## 7 - المصلحة الشخصية والاعتبارات السياسية عند الصليبيين :

إذا استثنينا الذين فروا من المعركة أثناء حصارهم في أنطاكية أي عند أول خطوة خطاها الصليبيون باتجاه الشرق، فإن عدداً كبيراً من الفرسان والقادة كانوا يشعرون بالاكتماء بمجرد أن احتلوا إحدى المدن ونصبوا أنفسهم حكاماً عليها متناسين القسم الذي أدوه على أنفسهم بتخليص قبر السيد من دنس «الكفار» لهذا فإن الذين وصلوا إلى القدس كان جلهم من البسطاء المؤمنين والقادة الذين لم يحصلوا بعد على نصيبهم من الغنيمة، لأن المدن التي افتتحت في بداية الحملة بالكاد أشبعت نهم القادة الكبار منهم أمثال بوهمند وتكريد.

يصور زابوروف هذه الحالة بدقة تامة أثناء النزاع الشديد الذي قام بين ريمون دي سانجيل وبوهمند

زابوروف على ذلك بتهكم بالغ بقوله: «ولكن...  
الايان هو الايمان والدين هو الدين».

#### 8 - الاعتبار الاقتصادية:

على الرغم من أن التجارة لعبت دوراً كبيراً في  
بنيان مملكة القدس الاقتصادي كما يذكر زابوروف إلا  
أن الصفحات المعقودة على ذكر أهمية التجارة ودور  
المدن التجارية خاصة البندقية وجنوه، وبيزا لا تفي  
بالغرض المطلوب، إذ أن ترسيخ دعائم الصليبيين في  
الشرق وتحقيق الانتصارات العسكرية خاصة في المدن  
الساحلية كان لا يتم بواسطة مدافع السفن التجارية  
أو بنقل العساكر إلى السواحل عند الحاجة. وهنا  
يلتقي زابوروف مع كاهن (المؤرخ الفرنسي) في  
التقليل من الأهمية التجارية للامارات الصليبية<sup>(15)</sup>.  
إلا أنه لا بد لنا من أن نذكر أن هذه المدن التجارية  
نفسها قد ساهمت بنزاعاتها التي كانت دائمة الحصول  
في المدن التي نالت فيها حقوقاً وامتيازات واسعة في  
تقويض المملكة اللاتينية نفسها. كما نجد أن هذه  
المدن أخذت فيها بعد تتعاضد عن مساعدة الصليبيين  
خوفاً من ضياع ما كان لها من حقوق تجارية في  
الاسكندرية وغيرها من مدن الإسلام<sup>(16)</sup>.

#### 9 - موقف المسيحيين الوطنيين:

يحاول زابوروف من خلال سرده للوقائع التاريخية  
اعتماداً على مصادرها الأساسية أن يظهر تخلخل  
العلاقة بين المسيحيين الوطنيين وجموع الصليبيين  
الذين جاؤوا إلى الشرق على حد تعبيره «لتخليصهم  
من سلطة الكفار» ويشير إلى هذه العلاقات عبر ذكره  
لبعض الأحداث بإشارات منه تدل على تهكم واضح  
ناتج عن قناعة تامة بضعف الوازع الديني عند  
الصليبيين من جهة وعدم اقتناع المسيحيين المحليين  
بالشعار الصليبي نفسه:

«أما سكان المناطق المجاورة، من أرمن  
ويونانيين وسوريين، فقد كانوا يبيعون  
المنتجات الغذائية بأسعار مفرطة الغلاء.  
ويورد فارس نورماني اشترك في حصار انطاكية  
قائمة كاملة بأسعار الخبز والدجاج والبيض  
والجوز والخمور ولحوم الحمير. ويعتبر هذه  
الأسعار غالية جداً. ويقول: «بل أن كثيرين  
منا ماتوا هناك لأنه لم تكن معهم الأموال التي  
يستطيعون أن يشتروا بها بمثل هذه الأسعار  
الغالية». ان اولئك الذين كانوا ينهبون  
ونحربون ضواحي انطاكية بوحشية وهمجية غير  
آهين بالعواقب، شرعوا الآن يجنون ثمار  
لصوصياتهم»<sup>(17)</sup>.

كما يذكر زابوروف عدة استشهادات لمدوني الأخبار  
اللاتين تدل على مبلغ الحقد الذي كان يكنه السكان  
المحليون للأسياد الغرباء. يقول الراهب الدومينيكاني  
الالماني بورخارد «صحيح انهم (أي السوريين)  
مسيحيون، ولكنهم لا يصدقون اللاتين اطلاقاً».  
ويروي الكاتب الفرنسي من أوائل القرن الثالث  
عشر جاك دي فيتري، الذي عاش في فلسطين وكان  
أسقفاً لعكا أن السوريين كانوا يفضون بأسرار  
الصليبيين العسكرية إلى المسلمين... إنهم غالباً ما  
يطلبون العون ضد المسيحيين من أعداء ديننا ولا  
يستحون من أن يبدوا لما فيه ضرر المسيحية القوي  
والأموال التي يجب انفاقها لمجد الرب ضد  
الوثنيين»<sup>(18)</sup>.

أما عن سبب انعدام مقاومة الصليبيين على  
الساحل اللبناني فإنما يعود حسب رأي زابوروف،  
رغم عدم توسعه في هذه المسألة، إلى أن القوة التي  
أرادت قتال الصليبيين كانت أصلاً ملتحقة إما  
بالجيش السلجوقي وأما بالجيش الفاطمي النظامي.  
لذلك عمد سكان الساحل اللبناني برأيه إلى مصانعة

البلاط الملكي تلك هي السمات المميزة للحياة السياسية في دول الأفرنج»<sup>(20)</sup>.

#### 11 - في نتائج الحرب الصليبية:

يعترف زابوروف ببعض التأثيرات الحضارية المتبادلة بين الشرق والغرب خلال فترة الحرب الصليبية فيذهب إلى القول ان الحملات الصليبية بالإجمال قد اضطلعت بدور سلبي ولم تضطلع البتة بدور إيجابي. هذا الموقف لا يتعارض ومعظم رأي المؤرخين الذين كتبوا في الحركة الصليبية بقولهم أن الحضارة العربية قد انتقلت إلى الغرب عبر اسبانيا وصقلية فقط. وإن الصليبيين كانوا عاجزين عن فهم هذه الحضارة مستندين بذلك على استمرارية العلاقات الحربية بين الطرفين وعلى أن الحضارة في الشرق كانت قد بدأت بالأفول في وقت أصبح فيه المجتمع العربي مجتمعاً حربياً غير متجانس يسوده الاضطراب والتفكك والنزاعات المحلية على السلطة<sup>(21)</sup>.

ولتصحيح هذه المقولة لا بد من القول ان الصليبيين لم يهتموا كما اهتم سكان الأندلس وصقلية بنقل علوم العرب إلى الغرب عن طريق ترجمتها أو تدريسها. ولكنهم خبروا هذه العلوم عن قرب أكثر بفضل الاحتكاك المباشر اليومي الذي كان يتم عبر العلاقات الاقتصادية التي تزدهر أوقات السلم. وبفضل هذا الاختبار والفائدة من الأعمال الطبية والحسابية والفلكية والجغرافية ازداد إقبال علماء أوروبا وأساتذتها على علوم العرب في جهات الأندلس وصقلية لكون جماعات الصليبيين العائدين إلى بلادهم بعد أن فشلوا في الحصول على مكسب مادي في الأراضي المقدسة كانوا يتحدثون عن حضارة العرب في الشرق بين ذويهم وفي مجتمعاتهم، وبما يؤكد ذلك ما قام به شارل دانجو عندما تولى العرش

الصليبيين وإرسال بعض المؤن لهم وذلك بقصد صرفهم عن القيام بعمليات عدائية أثناء مرورهم في ممتلكاتهم، ولوقاية مدنها وكرومهم وبساتينهم من ضراوة القطعان الأفرنجية وجشعها.

#### 10 - النظام الاجتماعي والسياسي:

لما كان المجتمع الصليبي في منطقة الشرق الأدنى قد تشكل بأسره من العساكر والتجار فلم يكن في الواقع صالحاً لأن يخلق أو يقيم مستوى فكرياً رفيعاً. لهذا كان أثر الصليبيين الحضاري في هذه المنطقة ضعيفاً جداً اقتصر على العلاقات الاقتصادية وعلى ما يترتب بين السيد وفلاحيه من علاقات محدوده ضمن إطار ما تلميه المصلحة الحربية<sup>(19)</sup>. وهنا يستغل زابوروف هذه المسألة إلى أبعد الحدود ليرهن لنا تخلخل العلاقة الاجتماعية بين الصليبيين والمسلمين. فيتحدث نقلاً عن مدوني أخبار الحملات الصليبية عن عدة ثورات اجتماعية قام بها الوطنيون في بيروت وصيدا وطرابلس. لذلك نصت مجموعة قوانين ملك القدس بودوان الثاني (1118 - 1131) على التدابير الواجب اتخاذها في حال فتنه الأقنان. كما يورد لنا أمثلة متعددة عن عداوة السكان المحليين الذين حوّلهم الصليبيون إلى أقنان.

أما النظام السياسي الذي كان عبارة عن تسلسل مراتبي إقطاعي من الأسياد من مختلف المراتب والمراكز على شاكلة أنظمة أوروبا فإن زابوروف يقف منه موقفاً سلبياً بعد أن يفند سيئاته إذ يقول:

«إن المخاصمات الدائمة بين الإقطاعيين المتنافسين والخلافات بين الأتباع والأسياد والفتن الإقطاعية ضد الملوك والصراع من أجل السلطة الذي كانت ترافقه المؤامرات والذي كانت تخوضه الزمر والتكتلات من

الصقلي بعد فشل حملته على الشرق، كما أن غالبية الأسياد من الفرنجة في الامارات اللاتينية قد أتقنوا اللغة العربية خاصة في عهد لويس التاسع وفريدريك الثاني<sup>(22)</sup>.

لقد أتاحَت العلاقات التجارية أيضاً التي قامت بين الشرق والغرب أثناء الحروب الصليبية فرصة كبيرة للتعرف على أحوال العرب وحضارتهم. وساهمت هذه العلاقات إلى حد بعيد في نقل الثقافة العربية إلى الغرب على أيدي التجار الأوروبيين الذين كانوا يقدون إلى الأراضي المقدسة. واكتسبت اللغات الثلاث الفرنسية والإيطالية والانكليزية عن العربية معاني ومفردات لغوية متعددة خاصة فيما يتعلق بأمور البحرية. كما أطلق التجار الأوروبيون المفردات اللغوية التي وضعها العرب لكثير من التوابل والبهارات والأقمشة والعطور. ويظهر ذلك جلياً في قواميس هذه اللغات الثلاث.

وهكذا فإن الحروب الصليبية التي استمرت مدة قرنين من الزمن، وما تخللها من علاقات سلمية وحرية وتجارية أدت بطبيعة الحال إلى تعرف الغرب

على حضارة العرب عن كثب وإلى الأخذ بمقومات هذه الحضارة نتيجة الفائدة العظيمة التي اكتسبها الأوروبيون من ممارستهم لها في جميع مجالات العلم والمعرفة. ولا يسعنا إلا أن نذكر بهذا الصدد بأن الأوروبيين بعد أن هضموا علوم الشرق واستوعبوا أقبلوا على ترجمتها ودراستها في القرن الثالث عشر حتى سمي هذا العصر بعصر الترجمة من العربية إلى اللاتينية. وهو ما يفسر عدم أخذ الأوروبيين بهذه الحضارة قبل ذلك، مع أنه كان قد مضى على وجود المسلمين في اسبانيا وصقلية زهاء الخمسة قرون، ومع أن حضارة القرنين التاسع والعاشر الميلاديين أيام هارون الرشيد والمأمون قد وصلت إلى عصرها الذهبي وفاقَت حضارات العالم في ذلك الوقت<sup>(23)</sup>.

إلا أن هذا السيف يبقى شاهداً حياً يضاف إلى المكتبة العربية وتاريخ العرب، يشير إلى ما اقترفته أيدي الصليبيين، باسم الرب، من ذنوب أقلها التدمير والنهب والقتل وزرع العداوة والادعاء بفجور أنهم حافظوا على القبر المقدس.

## الحواشي

- (1) أرست باركر: الحروب الصليبية. ترجمة السيد الباز العربي، دار النهضة، بيروت 1967 ص 22.
- (2) زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص 18.
- (3) محمد مخزوم: مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي في عصر النهضة، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1983 ص 27.
- (4) زابوروف: ص 22.
- (5) زابوروف: ص 24.
- (6) زابوروف: ص 26.
- (7) زابوروف: ص 34.
- (8) زابوروف: ص 40.
- (9) زابوروف: ص 48.
- (10) زابوروف: ص 122.

- 
- (11) زابوروف: ص 106.
- (12) زابوروف: ص 195.
- (13) زابوروف: ص 214.
- (14) زابوروف: ص 112.
- (15) Cahen: *Notes sur l'Histoire des Croissades et de l'Orient Latin*. Bulletin de la Faculté des lettres de Strasbourg. Mai - juin 1951.
- (16) ستيفن رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية ترجمة السيد الباز العريفي، دار الثقافة، 1967، المجلد الثالث ص 607.
- (17) زابوروف: ص 87.
- (18) أنظر كتابات أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار التي يتهم فيها على عادات الصليبيين الاجتماعية.
- (19) زابوروف: ص 138.
- (20) زابوروف: ص 147.
- (21) من هؤلاء المؤرخين: ستيفن رنسيان، سعيد عاشور، وأرنست باركر وغيرهم الكثير.
- (22) انظر: REY: *Les Colonies Franques en syrie*, Paris 1883, P.172
- (23) محمد مخزوم: مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي في عصر النهضة، ص 37 وما بعدها.